﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ الأولى في الإسْراءِ لِآخِرِ آياتِ سورةِ النَّحْلِ:

عـمـادُ الـصَّـبـر الـتّـقـوى وتـركُ الحُزنِ والضِّيق، وثمرتُه الرِّفعةُ والـعُـلُـوُّ في الدَّارين

لمّا تقدَّم في آخر سورة النّحل الأمرُ بالصّبر، وتَركِ الحُزن والضّيقِ مِن مَكْر الكافرين، ووَعْدُ اللّهِ تعالى أنَّه معَ المُتّقين المُحسنين؛ ناسبَ الابتداءُ في سورة الإسراء بذِكْر معجزةٍ تقوم مقامَ التَّأييد في توريث الصَّبر والتّسليَة، وعدم الحُزن والضّيق مِن مَكر الماكرين، وبها قدِ استبانَ حالُ المُتَّقي المُحْسن ﷺ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبۡحَٰنَ﴾: (سبح) السّينُ والباءُ والحاءُ تدلُّ على جِنسٍ مِنَ العِبادةِ، فالسُّبْحَةُ هي الصّلاةُ، ويختصُّ بذلك ما كان نفلًا غيرَ فرض، ومِنَ البابِ: التّسبيحُ، وهو تنزيهُ اللّهِ جلّ ثناؤُهُ عن كُلِّ سوء، والتّنزيهُ: التّبعيدُ[2]، وأصلُه: المَرّ السّريعُ في عبادة اللّه تعالى، وجُعِلَ ذلك في فعل الخير، كما جُعِلَ الإبعادُ في الشّرّ، فقيل: أبعَدَهُ اللّهُ، وجُعِل التّسبيحُ عامًّا في العبادات قولًا كان، أو فعلًا، أو نيّةً، و(سُبحانَ): أصلُه مصدر، نحو: غفران[3]، فالمصدرُ تسبيح، والاسمُ سُبحانَ يقومُ مقامَ المَصدرِ، و﴿سُبۡحَٰنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ منصوبٌ على المَصدرِ؛ والمعنى: أُسبِّح اللّه تسبيحًا[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سبح).

2) ﴿أَسۡرَىٰ﴾: السّينُ والرّاءُ والحرفُ المُعتلُّ تدلُّ على كشف الشّيءِ عن الشّيءِ، يقال: سروتُ عنّي الثّوبَ، أي: كشفتُهُ، ويُقالُ أيضا: سُرّي عنهُ، والسُّرَى: سَيرُ اللّيلِ، يُقالُ: سريتُ وأسريتُ[1]، وسريتُ سُرًى ومَسرًى وأسريتُ بمعنًى، إذا سِرتَ ليلًا، بالألف لُغةُ أهلِ الحِجازِ، وجاء القرآنُ العزيزُ بهما جميعًا[2]، قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾.

3) ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾: مادّة (عبد) أصلانِ صحيحانِ، كأنّهُما مُتضادّانِ، والأوّلُ من ذينك الأصلين يدُلُّ على لين وذُلّ، والآخرُ على شِدّة وغِلَظ[3]، والعُبوديّةُ: إظهار التّذلُّل، والعِبادةُ أبلغُ منها؛ لأنّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّهُ تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، والعِبادةُ ضربان: عِبادةٌ بالتّسخير، وعِبادةٌ بالاختيار، وهي لذوي النُّطق، وهي المأمور بها في نحو قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]، والعبدُ يقال: هو على أربعة أضرب؛ الأوّل: عبدٌ بحُكم الشّرع، وهو الإنسان الذي يَصِحّ بيعُهُ وابتياعه، الثّاني: عبدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلّا للّه، وإيّاه قَصَدَ بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93]، والثّالث: عبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمَة، والنّاسُ في هذا ضربان: عبدٌ للّه مُخْلِص، وعبدٌ للدّنيا وأعراضها، وهو الضَّربُ الرّابع، وجمعُ العبد الذي هو مُسترَقٌّ: عبيد، وجمعُ العبدِ الذي هو العابدُ عبادٌ[4]، والمراد في الآية: سيّد الخَلْق ﷺ، فهو المَنعوت بهذه الصّفة الجليلة وهذا النّعت الكريم.

4) ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾: "القافُ والصّادُ والحرفُ المُعتلُّ أصلٌ صحيح يدُلُّ على بُعد وإبعاد، من ذلك القَصا: البُعدُ، وهو بالمكانِ الأقصى والنّاحيةِ القُصوى، وذهبتُ قَصا فُلانٍ، أي: ناحيتَهُ، ويُقالُ: أحاطونا القَصا، أي: وَقفوا منّا بينَ البعيدِ والقريبِ، غيرَ أنّهُم مُحيطون بِنا، كالشّيءِ يحوطُ الشّيءَ يحفظُهُ"[5]، وقولُه: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعني: بيتَ المَقدس، فسمّاهُ الأقصى اعتبارًا بمكان المُخاطَبين به مِنَ النّبيّ وأصحابه[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(4) الرّاغب، المفردات: (عبد) بتصرُّف.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).

5) ﴿بَرَكْنَا﴾: البَركةُ: النّماء والزّيادةُ، والتّبريكُ: الدُّعاءُ للإنسان أو غيرِهِ بالبركةِ، يُقالُ: بَرّكتُ عليهِ تبريكًا، أي: قُلت لهُ: باركَ اللّهُ عليك، وبارك اللّهُ الشّيء وبارك فيهِ وعليهِ: وضعَ فيهِ البركة[1]، والمقصود في الآية: بقاءُ الخيرِ فيما حولَ المسجدِ الأقصى وفيه لزومًا إلى يوم القيامة، مِن وجود العبّاد والمرابطين والعلماء، فهذه أعظمُ بركةٍ تنزل بمكانٍ.

6) ﴿حَوْلَهُۥ﴾: (حول) الحاءُ والواوُ واللّامُ أصلٌ واحِد، وهو تَحَرُّك في دور، فالحَوْلُ: العامُ، وذلِك أنّهُ يحولُ، أي: يدورُ، ويُقالُ: حالتِ الدّارُ وأحالت وأَحْوَلَت: أتى عليها الحَولُ، وأَحْوَلتُ أنا بِالمكانِ وأَحلتُ، أي: أقمتُ بِهِ حولًا[2]، يُقالُ: رأيت النّاسَ حَوالَه وحَوالَيْه وحَوْلَه وحَوْلَيْه، فحَوالَه: وُحْدانُ حَوالَيْه، وأَمّا حَوْلَيْه: فَهيَ تَثْنِيَةُ حَوْلَه، وفي حديثِ الاِستِسقاءِ: "اللهُمّ حَوالَيْنا ولا علينا"[3]؛ يُريدُ: اللهُمّ أنزِلِ الغيثَ علينا في مواضِعِ النّباتِ، لا في مواضِعِ الأبنية، مِن قولِهِم: رأيتُ النّاسَ حَوالَيْه، أي: مُطيفين بِهِ مِن جوانِبِه، واحْتَولَهُ القومُ: احتوشوا حَوالَيه[4]، وحَولُ الشّيء: جانِبُه الذي يمكنه أن يُحَوّل إليه[5]، والمُرادُ بحوالي المَسجد الأقصى: نواحيه جميعها، ممّا يُتعارَف عليه بينَ النّاس بأنّه مِن نَواحي المسجد.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جزءٌ من الزّمان انتقل فيه سيِّد الـخـلـق بين مركزي العبادة في الأرض

اشتملت هذه الآيةُ الكريمة على دعوة المؤمنين إلى تنزيه اللّه تعالى مِن كلّ سوء، فهو الذي أسرى بعبده محمّد ﷺ ليلًا مِنَ المسجد الحرام في مكّة المكرّمة إلى المسجد الأقصى في بيت المَقدس، الذي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (برك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حول).
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (933).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حول).
(5) الرّاغب، المفردات: (حول).

بارك اللّهُ فيه مِن كلِّ نواحيه، فوفدَ إليه العلماءُ والعبّادُ والصّالحون والمجاهدون، وقد أرى اللّهُ تعالى محمّدًا ﷺ مِنَ الآيات العظيمة والمعجزاتِ الجليلة، التي كانت بأمر اللّه تعالى ورعايته وعنايته، فهو المُتّصف بالصّفات العُليا، وهو السَّميع البَصير.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بذِكْر التَّسبيح:

الإسراءُ معجزةٌ عظيمة عجيبةٌ باهرةٌ تستحقُّ التّسبيح والتّمجيد

لمّا كان حَدَثُ الإسراءِ مِنَ الأهميّة بمكانٍ؛ لكونِهِ معجزةً باهرةً لنبيّ أُميّ، في بيئة أُميّة تتكبّد من المشقّة والعناء في رحلاتها ما تتكبّد، وإذ بهم يَرَون أمرًا خارقًا لم يعرفوه ولم يألفوه، فلم يصدِّقوه؛ جاء الأسلوبُ ببراعة الاستهلال ليُعبِّر عن هذه الرّحلة، مفتتحًا بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مشيرًا إلى كمال القدرة، وتنزيهًا للّه تعالى عن صفات النّقص؛ فالافتتاحُ بكلمةِ التّسبيحِ مِن دونِ سبقِ كلام مُتضمِّنٍ ما يجبُ تنزيهُ اللّهِ عنهُ، يُؤذِنُ بأنّ بعدَها خبرًا عجيبًا يستقبلُهُ السّامعون، دالًّا على عظيمِ القُدرةِ مِنَ المُتكلِّم، ورفيعِ منزلةِ المُتحدَّثِ عنهُ؛ فإنّ جُملة التّسبيحِ في الكلامِ الّذي لم يقع فيهِ ما يوهِمُ تشبيهًا أو تنقيصًا؛ يتعيَّنُ أن تكون مُستعملةً في أكثرَ مِنَ التّنزيه، وذلك هو التّعجيبُ مِنَ الخبرِ المُتحدّثِ بِهِ[1].

سِرُّ استعمالِ صيغة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾:

أبـدعُ المبـاني ما كان حاويًا لغزير المعاني

﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمُ عَلَمٍ على التّسبيح، يقال: سبَّحتُ اللّهَ تسبيحًا، فالتّسبيحُ هو المَصدر، و(سبحانَ اللّه) عَلَمٌ للتّسبيح، دالٌّ على أبلغِ ما يكون مِن معناه[2]، "ولمّا كان هذا الكلامُ مِن جانبِ اللّهِ تعالى، والتّسبيحُ صادرًا مِنهُ، كان المعنى تعجيبَ السّامعين؛ لِأنّ التّعجُّبَ مُستحيلةٌ حقيقتُهُ على اللّهِ، لا لِأنّ ذلك لا يُلتَفَتُ إليهِ في محامِلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 109، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 288.

الكلام البليغ؛ لإمكانِ الرُّجوعِ إلى التّمثيلِ، مِثلُ مجيءِ الرّجاءِ في كلامِهِ تعالى نحوُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: 189]، بل لأنّهُ لا يستقيمُ تعجُّبُ المُتكلِّمِ مِن فِعلِ نفسِهِ، فيكونُ معنى التّعجيبِ فيهِ مِن قبيلِ قولِهِم: أتعجَّبُ مِن قولِ فُلانٍ: كيتَ وكيتَ"[1]، فالتَّسبيحُ هنا مستعمَلٌ في التَّنزيه ابتداءً مِن أيِّ نقصٍ، وهو كنايةٌ عنِ التَّعجُّب؛ ولهذا كان استعمالُ التَّسبيحِ هو الأنسبَ في هذا السّياق الجامعِ بين ذَيْنِكَ المعنَيين.

دلالةُ الإيجاز بحَذْفِ العامل:

المصدرُ أصلُ المُشتقّات، واستعمالُه يُغني عنِ استعمال الفعل الّذي يحتاج إلى مفعولين، وبالمصدر إفادةُ المعنى تامّا مِن أخصر طريقٍ وأوجزِه، ففي استعمال المصدر ﴿سُبْحَٰنَ﴾ "ما لا يخفى مِنَ الدّلالة على التّنزيه البليغِ مِن حيثُ الاشتقاقُ مِنَ السَّبح، الذي هو الذّهابُ والإبعادُ في الأرض، ومنه: فرسٌ سَبوح، أي: واسعُ الجَري، ومِن جهة النّقلِ إلى التّفعيلِ، ومِن جهة العُدولِ مِنَ المَصدر إلى الاسمِ الموضوعِ له خاصّة، لا سيّما وهو عَلَمٌ يُشير إلى الحقيقةِ الحاضرةِ في الذّهن، ومِن جهة قيامِه مقامَ المَصدرِ مع الفعلِ، وقيل: هو مصدر كغُفران، بمعنى التَّنزّه، ففيه مبالغةٌ من حيثُ إضافةُ التّنزّه إلى ذاته المُقدّسة، ومناسبةٌ تامّةٌ بينَ المَحذوف وبينَ ما عُطف عليه في قوله ﷻ، كأنّه قيل: تنزّه بذاته وتعالى"[2].

الـمـصـادرُ أوفَـر دلالـةً وأمـكـنُ مـعـنًـى مِـنَ الإتيانِ بعواملها

فائدةُ التّعبير عنِ الذّات العَلِيّة بجملة الصِّلة:

التّعبيرُ عنِ الذّاتِ العَليّة بطريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾، دون الاسمِ العَلَم (اللّه)؛ للإشعار بعلّيَّة ما في حَيّزِ الصّلةِ للمُضاف؛ فإنّ ذلك مِن أدلّة كمالِ قُدرته، وبالغِ حِكْمَته، ونهايةِ تنزُّهِه عن

إظهارُ التَّعجيب مـن قـدرتـه سبحانَه على الإسراء بعبدِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 421.

صفات المَخلوقين[1]، وللتّنبيهِ على ما تُفيدُهُ صلةُ الموصولِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ هذا التّعجيبِ والتّنويهِ وسببِهِ، وهو ذلك الحَدَثُ العظيمُ، والعِنايةُ الكُبرى.

إدمـاجٌ في بيانِ رِفعةِ قَدْرِ مُحمّد ﷺ

يُفيدُ هذا المطلع أنّ حديثَ الإسراءِ أمرٌ فشا بينَ القوم، فقد آمنَ بِهِ المُسلمون، وأنكره المُشركون، وفي ذلك إدماجٌ لِرفعةِ قَدْرِ مُحمّد ﷺ، وإثباتُ أنّهُ رسولٌ مِنَ اللّه، وأنّهُ أوتيَ مِن دلائِلِ صِدقِ دعوتِهِ ما لا قِبَل لهُم بإنكارِهِ، فقد كان إسراؤُهُ إطْلاعًا لهُ على غائِبٍ مِنَ الأرضِ، وهو أفضلُ مكانٍ بعدَ المسجِدِ الحرامِ[2].

سِرُّ التّعبير بفعل ﴿أَسْرَىٰ﴾:

أسـرى اللـهُ البُراقَ لعبده، فَسَرى البُراقُ بعبده

قولُه تعالى: ﴿أَسْرَىٰ﴾ مأخوذٌ مِنَ الإسراء، وهو السَّير باللّيل خاصّة، يُقال: أسرى به، وسَرى به، أي: سار في اللّيل، والفعلان لازمان، إلّا أنّهما يختلفان في المَصدريّة، فمَصْدَرُ الأوّل: الإسراء، ومصدر الثّاني: السُّرى - بضَمّ السّين - كالهُدى، ولم يقرأ أحدٌ (سرى بعبده)، وإن كان أهلُ اللّغة قد قالوا: سرى وأسرى بمعنًى واحد، فدَلَّ على أنّهم لم يُحَقِّقوا العبارةَ، والإسراءُ مُتعَدٍّ في المعنى، ولكن يُحْذَفُ مفعولُه كثيرًا، حتّى ظَنّ أهلُ اللّغة أنّهما بمعنًى واحد، لمّا رأوهُما غيرَ متعدّيَين إلى مفعول في اللّفظ، وإنّما قيل: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، أي: جعل البُراق يَسْري، كما تقول: أمضيتُه، أي: جعلتُه يمضي، لكن كَثُر حَذْفُ المفعولِ لقوّة الدّلالةِ عليه، أو للاستغناء عنْ ذِكْره؛ إذِ المَقصودُ بالخبر ذِكْر محمّد، لا ذِكْر الدّابّةِ التي سارت به[3]، ففيه شِبْهُ احتباكٍ، تقديره: أسرى اللّهُ البُراق لعبده، فَسَرى البُراق بعبده.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10، 11.
(3) السّهيليّ، الرّوض الأنف: 3/ 413.

وفي هذا لطيفةٌ تُناسِبُ المَقامَ هُنا، إذ قال: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دون (سرى بِعبدِهِ)، وهي التّلويحُ إلى أنّ اللّه تعالى كان مع رسولِهِ في إسرائِهِ بِعِنايتِهِ وتوفيقِهِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48]، وقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[التّوبة: 40][1].

فائدةُ التّعبير بعنوان العُبوديّة دونَ الرّسالة أو النُّبوّة:

الجَمْعُ بين أعلى مراتبِ المَحبَّة، وأسمَى مراتبِ الخُضوعِ والمَذَلَّة

آثَرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بعنوان العُبوديّةِ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دونَ الرّسالةِ أو النُّبوّة؛ وذلك أنَّ العبوديَّة هي إظهارُ التّذلُّلِ والخضوع، وهي أعلى المنازل وأشرفُ المقامات الّتي يرتقي بها الإنسانُ إلى أسمى درجاتِ القُرْبِ والرِّفعة، فإيثارُ وصف العبوديّة للإيذان بتمحُّضه ﷺ في عبادته سبحانَه، وبلوغِه في ذلك غايةَ الغاياتِ القاصيَة، ونهايةَ النّهايات النّائيَة حسبما يَلوح به مبدأُ الإسراء ومنتهاه؛ وقيل: إنّ في التّعبير به هنا دون حبيبه – مثلًا – سَدًّا لباب الغُلوِّ فيه ﷺ، كما وقع للنّصارى في نبيّهم عليه السلام[2]، وكِلا التّوجيهَين صحيحٌ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ العبد إلى الضّمير:

قِمَّةُ الشّرف والمَعالي الاتّصاف بنعتِ العبوديَّة

في قوله تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ أُضيف لفظُ (عبد) المُراد به سيِّدُ الخَلْق ﷺ إلى ضمير الغَيبةِ العائدِ على اللّه ﷻ؛ بغرضِ التّشريفِ والتّعظيم، والتّقدير لشأنه ورِفعة قَدْرِه ﷺ، وليست الإضافةُ إضافةَ تعريفٍ؛ إذ هو أشرفُ عبادِه، وأحقُّهم بالإضافة إليه، الذي لم يتعبَّدْ قَطّ لِسِواه مِن صنمٍ ولا غيرِه، لرجاء شفاعةٍ ولا غيرِها[3]، وقد ذُكر أنَّه لم يُعَبِّرِ اللّهُ تعالى عن أحدٍ بالعبد مُضافًا إلى ضمير الغيبة المُشارِ به إلى الهويّةِ إلّا النّبيَّ ﷺ، وفي ذلك مِنَ الإشارة ما فيه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 10، 11.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 4.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 288.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 4.

سِرُّ التّقييد بالظَّرف ﴿لَيۡلًا﴾:

اللّـيـلُ أُنـسُ المُـحِـبّـين، ولا يَدْعُو المَلِكُ إلى مجالسته ليلًا إلّا مَن أَحَبّ

لمّا كان الإسراءُ لا يكون إلّا ليلًا لخصوصيَّته به لُغةً؛ ناسَبَ أنْ يُسألَ عن سِرِّ التَّقييد بالظّرف لهذا الحَدَثِ الجَلَل، قال الزّمخشريّ: "فإن قلتَ: الإسراءُ لا يكون إلّا باللّيل، فما معنى ذِكْرِ اللّيل؟ قلتُ: أراد بقوله: ﴿لَيۡلًا﴾ بلفظ التّنكير، تقليلَ مُدَّةِ الإسراء، وأنّه أسرى به في بعض اللّيل مِن مكّة إلى الشّام، مسيرةَ أربعين ليلةً"[1]، وجعلَهُ أبو حيّان على سبيل التّوكيد، والإفادةُ خيرٌ مِنَ الإعادةِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنّهُ إسراءٌ خارقٌ للعادَةِ، لِقطعِ المسافةِ الّتي بين مَبدأ السّيرِ ونهايتِهِ في بعضِ ليلة[2]، فَذَكَر ﴿لَيۡلًا﴾ للإشارة إلى كون السّير ليس سَهلًا؛ فضلًا عن كونه موضعَ غرابةٍ؛ إذ كان بأقصى السُّرعة![3].

اللّـيـلُ مَـظِـنّـةُ السّـترِ، وخفاءِ العمل

من ناحية أخرى، في إيثار لفظ اللّيل إشارةٌ إلى "أنّه كان بحيثُ لم يشعر به أحدٌ، بل وقع في سِتر، بحيث لم يَلْحَظْهُ أحدٌ مِنَ المُتّصلين بالنّبيّ، القريبين منه، الذين كانوا يشاركونه الحياةَ في بيته، وفي الحُجَرة التي كان ينام فيها"[4].

غَرضُ تنكير ﴿لَيۡلًا﴾:

تعظيم الزَّمان بعَظَمة أحداثه، وشأنِ مُجْرَياتِه

اختُلف في توجيه غرضِ تنكير الظَّرف ﴿لَيۡلًا﴾، فقيل: إنَّه للتّبعيض[5]، فالإسراءُ كان في بعض اللّيل، ولم يستغرق اللّيلَ كلَّه[6]، وقيل: إنَّه لِدَفع توهُّم أنّ الإسراء كان في ليالٍ، أو لإفادة تعظيمه[7]، كما هو المناسبُ للسّياق والسّباق، أي: ليلًا أيَّ ليلٍ! دنا فيه المُحِبُّ إلى المحبوب، وفاز في مقام الشُّهود بالمَطلوب"[8].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 436.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 11.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4318.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 411.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 436، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 154.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 436، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4318.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 11.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 5.

نوع الحرف ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُه:

مَـــن أشـرقـت بداياتُه أشرقت نهاياتُه

ورد الحَرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ للدّلالةِ على ابتداءِ الغاية، حيثُ بدأ الإسراءُ برسول الله ﷺ مِنَ المَسجد الحرام ابتداءً حقيقيّا تحقيقيّا، وابتداءُ الغاية هنا مكانيٌّ، وهو أمرٌ غيبيٌّ نُؤمنُ به كما أخبر به ﷺ، أي: ابتدأ مِنَ المسجد الحرام؛ ليكتسبَ الشَّرفَ مَطْلِعُ تلك الرّحلةِ التّاريخيَّةِ العظيمةِ، التي رسمت مسارَ الحياةِ الدّينيَّةِ إلى يوم الدّين.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

الارتـبـاطُ بـينَ المَسجدَين باقٍ إلى قيام السَّاعة

اختيرَ في النَّظم التَّعبيرُ بالمسجد الحرام دون البيت الحرام، أو الكعبة، وذلك لحُسْن المقابلةِ معَ المسجدِ الأقصى، ولرَبْطِ المَسجدين باسمٍ واحدٍ يجمعُهُما، ولو قال: (مِنَ الكعبة إلى المسجد الأقصى) لوقعت مفاضلة ليس هنا موضعُها، وهي حاصلةٌ مِن أدلَّة أُخْرَى؛ "والنُّكْتَةُ في هذا التّعبير مطابقةُ المَبْدأ المُنتَهَى"[1].

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾:

الإيـمـاءُ إلى أنَّ البيت الحرامَ سيبقى مسجدًا للعابدين

المسجدُ: اسمٌ لمكان السُّجود، "ولُقِّب بالمَسْجِد؛ لأنّ إبراهيم ﷺ جَعَلَهُ لإقامةِ الصّلاةِ في الكعبة، كما حكى اللّهُ عنهُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]، ولمّا انقرضت الحنيفيّةُ، وتركَ أهلُ الجاهليّةِ الصّلاةَ، تناسَوا وَصْفَهُ بالمسجدِ الحرام، فصاروا يقولون: البيت الحرام، وأمّا قولُ عُمر: إنّي نذرتُ في الجاهليّةِ أن أعتكف ليلةً في المسجد الحرام، فإنّهُ عبَّر عنهُ باسمِهِ في الإسلام"[2]، وفي اختيار السّجود مادَّةً للاسم العَلَم؛ تمييزٌ للسّاجدين مِنَ المشركين، وتمييزٌ لهذه الأُمَّةِ مِن غيرها مِنَ الأمم، التي لا تسجدُ في عبادتها، ولأنَّ السّجودَ أَخَصُّ خصائصِ الصَّلاة في القُرْب والاقتراب، وللإيماء إلى أنَّ هذا البيتَ سيبقى مسجدًا إلى قيام السّاعة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 14.

سِرُّ وَصْفِ المسجد بالحُرْمة:

مكانةُ المسجدِ الحَرام وحُرمةُ انتهاكِ خُصُوصيَّتِه

وَصْفُ ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾ بـ﴿ٱلْحَرَامِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ لبيانِ حُرْمَتِه، ولتحريم اللّهِ تعالى فيه كثيرًا ممّا ليس بمُحَرّم في غيره مِنَ المواضع، وكذلك الشّهرُ الحَرام[1]، فالحَرَمُ بهذا المعنى ممنوعٌ أن يُعمَل أو يُرتَكَب فيه أيُّ عملٍ إلّا ما جاء به الإذنُ، والحَرامُ: فَعال بمعنى مفعول، كقولِهم: امرأةٌ حَصانٌ، أي: ممنوعة بعِفافِها عنِ النّاسِ[2]، فهو حرامٌ فلا يَحِلُّ انتهاكُه؛ فلا يُقاتَلُ فيه، ولا يُصْطاد صَيْدُه، ولا يُقْطَع شَجَرُه.

دلالةُ حَذْفِ مُتَعلّق ﴿ٱلْحَرَامِ﴾:

حُرمَةُ المسجدِ الحَرام عامَّةٌ معلومةٌ مِنَ الشَّرع

يُحْذَفُ المُتعلِّق في حال الوصفيّة أو غيرِها، إذا دَلّ العُرفُ على ذلك؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال، فتقول العربُ: الشّهر الحرام، ويريدون الزّمن الذي حَرُم فيه القتال، بناءً على العُرف المُتبادِر لديهم، "وقد يُحْذَفُ المُتعلَّقُ لِقَصدِ التّكثير، فهو مِن الحَذْفِ لِلتّعميم، فَيَرجِعُ إلى العُمومِ العُرفيِّ، ففي نحوِ: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2] يُرادُ المَمنوعُ مِن عُدوانِ المُعتدين، وغزوِ المُلوكِ والفاتِحين، وعملِ الظُّلمِ والسّوءِ فيه"[3].

نَوعُ التّعريفِ في ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾:

شُهرةُ هذا المَسجدِ بينَ النّاس تجعلُه مُبَجَّلًا عند النّاس

العَلَمُ هو الّذي يُعيِّن مُسمّاه مُطلقًا، ويُؤتى به ليُمَيِّز مسمّاه من غيره، والعَلَمُ في ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عَلَمٌ بالغَلَبة، أي: بغَلَبة الإطلاق والاستعمال، قال الشيخ محمد الطّاهر بن عاشور:" فغلبَ عليه هذا التّعريفُ التّوصيفيُّ، فصار لهُ عَلَمًا بالغَلَبةِ في اصطِلاحِ القُرآنِ، ولا أعرِفُ أنّهُ كان يُعْرَفُ في الجاهِليّةِ بِهذا الاِسمِ، ولا على مَسجِدِ بيتِ

(1) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 13.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 13.

المَقْدِس في عصرِ تحريمِهِ عِند بني إسرائيل، وعَلَميَّتُهُ بمجموعِ الوصفِ والموصوفِ، وكِلاهُما مُعَرَّف باللّام، فالجُزءُ الأوّلُ: مِثلُ النّجم، والجُزءُ الثّاني: مثلُ الصَّعْق، فحصلَ التّعريفُ بمجموعِهما، ولم يَعُدَّ النُّحاةُ هذا النّوع في أقسامِ العَلَم بالغَلَبة، ولعلّهُمُ اعتبروهُ راجعًا إلى المُعرّفِ باللّام، ولا بُدّ من عَدِّه؛ لأنّ عَلَميَّتَهُ صارت بالأمرين"[1].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿إِلَى﴾:

لكلّ شيء غايةٌ ونهايةٌ قُضوى، كما كان للإسراء المسجدُ الأقصَى

جاء استعمالُ حرف ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ للدّلالة على انتهاء الغاية المَكانيّة، فقد ابتدأ رسولُ اللّه ﷺ رِحلتَه مِنَ المسجد الحَرام، وانتهى فيها إلى المسجد الأقصى، وهي الرِّحلة الأرضيّة، فالمُراد أنَّه أُسريَ به ابتداءً مِنَ المسجد الحَرام، وانتهاءً إلى المسجد الأقصى، ولو قال: (للمسجد الأقصى)؛ لاحتمل المَجازَ، أو التّعليل، أي: أُسريَ به مِنَ المسجد الحرام لأجل شأنِ المسجد الأقصى، فكان حرفُ ﴿إِلَى﴾ دالًّا على الحقيقة المكانيَّة التي لا تقبل التَّأويل.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾:

مسجدٌ حقيقٌ بكلِّ فداءٍ، ومُكابدةِ كلِّ عناءٍ

المُراد بـ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: هو المسجد المعروف ببيت المَقْدِس، بالقُدْس في فلسطين، وهو المَسْجِدُ الّذي بُنِي في عهد إبراهيم عليه السلام، فقد جاء عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: "قُلْتُ: يا رَسولَ اللّه، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قالَ: "المَسْجِدُ الحَرامُ"، قالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قالَ: "المَسْجِدُ الأَقْصَى"، قُلْتُ: كَمْ كانَ بَيْنَهُما؟ قالَ: "أَرْبَعونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَما أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ؛ فَإِنَّ الفَضْلَ فيهِ"[2]، و"سُمّي به إذ لم يكن حينَئِذٍ وراءَه مسجدٌ، وفي ذلك مِن تربية معنى التّنزيه والتّعجُّبِ ما لا يخفى"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 14.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3366).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 154.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾:

تجريدُ البُعدِ للبُعْد المَكانيّ المَحسوسِ، لا للبُعد المَقاميّ

آثَرَ النَّظمُ وصفَ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ دون الأبعد، "والقَصَى هو البُعْدُ، والقَصيُّ: البعيدُ، يقال: قَصَوتُ عنه، وأَقْصَيتُ: أَبْعَدتُ، والمكان الأقصى، والنّاحية القُصْوَى، قال تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعني: بيتَ المَقْدِس، فسمّاه ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ اعتبارًا بمكان المُخاطَبين به مِنَ النّبيّ ﷺ وأصحابه"[1]، فهو أقصى لا أبعد؛ وذلك لأنَّ المُراد تعيينُ البُعْدِ المكانيّ لا المَعنويّ، فهو قريبٌ مِنَ القلوب والنّفوس، وتَحِنُّ إليه أفئِدَةُ المؤمنين الصّادقين، ولو قال: (الأبعد)؛ لظُنَّ فيه البُعْدُ المعنويُّ كذلك، فكان هذا الاختيارُ دَفعًا للأوهام، ولتَعيين أنَّه الأقصى مكانًا، لا مقامًا ومنزلةً، كما أنَّ ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾ مبالغةٌ في البُعد، أمّا (الأبعد) فربّما يُحَدُّ بُعْدُه، أمّا هذا فقد بلغ في بُعْدِ المسافة مَداهُ.

دلالةُ صيغةِ أفعلِ التّفضيل:

التَّعبيرُ بالأقصى مُشيرٌ إلى الأقرب

اختيرت صيغةُ (أفعل) التّفضيل في ﴿ٱلۡأَقۡصَا﴾؛ تنبيها إلى إشارةٍ غيبيَّة، وقد أجاد الشيخ ابن عاشور في تحليلها حين قال: "وفي هذا الوصفِ بصيغةِ التّفضيلِ باعتبارِ أصلِ وضعِها مُعجزةٌ خفيَّةٌ من مُعجزاتِ القُرآنِ؛ إيماءً إلى أنّهُ سيكونُ بين المَسجِدين مَسجِدٌ عظيم هو مسجِدُ طيبةَ الّذي هو قَصيّ عنِ المسجِدِ الحرام، فيكونُ مَسجِدُ بيتِ المقدِسِ أقصى منهُ حينَئِذٍ، فتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى جميعِ المساجِدِ الثّلاثةِ المُفضّلةِ في الإسلامِ، على جميعِ المساجِدِ الإسلاميّة"[2]، وقد جُمِعَتْ هذه المساجِدُ في قوله ﷺ: "لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلّا إلى ثلاثَة مَساجِدَ: المَسْجِدِ الحَرامِ، ومَسْجِدِ الرَّسولِ ﷺ، ومَسْجِدِ الأَقْصَى"[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (قصى).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 15.

(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1189).

نُكْتَةُ ذِكر مبدأِ الإسراءِ ونهايتِه:

ذِكْـرُ مَـبْـدأِ الإسراء ونهايته دالٌّ عـلى أنّ الأمـر مِـن قَبِيلِ المُعجِزاتِ

ذَكَرتِ الآية مبدأَ رحلةِ الإسراء، وأنَّها بدأت ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وانتهت: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، وذلك لفائدتين:

الأولى: التّنصيصُ على قَطعِ المسافةِ العظيمةِ في جُزءِ ليلةٍ؛ لأنّ كُلًّا مِنَ الظّرفِ وهو ﴿لَيۡلًا﴾، ومِنَ المَجرورين ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ قد تعلّق بِفعلِ ﴿أَسۡرَىٰ﴾، فهو تعلُّق يقتضي الموازنةَ؛ ليُعْلَم أنّهُ مِن قبيلِ المُعجزاتِ.

الثّانية: الإيماءُ إلى أنّ اللّه تعالى يجعلُ هذا الإسراء إشارةً إلى أنّ الإسلام جمع ما جاءت بِهِ شرائعُ التّوحيدِ والحَنيفيّة، ومِن هُنا تَظْهَر مُناسبةُ نزولِ التّشريع الاجتماعيّ في هذهِ السّورةِ؛ إيماءً إلى أنّ هذا الدّين سيكونُ دينًا يَحْكُمُ في النّاسِ، وتُنفّذُ أحكامُهُ[1].

دلالةُ الوصفِ بالاسم الموصول:

الحَثّ على زيارة المسجد الأقصى، والاعـتـنـاءُ بقُدْسيّته لشَرَفِه وطهارته

الاسم الموصول مِنَ الأسماء المُبْهَمَة، وعليه: فإنّه يحتاج إلى الصّلة دائمًا؛ لكونها تُزيلُ إبهامَه، والمرادُ بالموصول وصِلته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ تعظيمُ أَمْرِ المسجدِ الأقصى، وتفخيمُ أمره، وزيادةُ تقريرِ شأنِه في نفوس السّامعين، والحَثُّ على زيارته، والاعتناءُ بقُدْسيّته لشَرفِه وطهارته، "وجيءَ في الصِّفةِ بِالموصوليّةِ لِقَصدِ تشهيرِ الموصوفِ بِمضمونِ الصِّلةِ، حتّى كأنّ الموصوفَ مُشتهرٌ بِالصِّلةِ عِندَ السّامِعين، والمقصودُ: إفادةُ أنّهُ مُباركٌ حولهُ"[2].

توجيه تخصيص البركة بالذِّكر:

بـركـةُ المسجد الأقصى أشهرُ ما فيه، والمحافظة عليه أبركُ ما فيه

ذكر ﷻ من أوصاف بيت المَقدس البُعدَ المكانيَّ بكونه الأقصى، ثمّ وصفه بكونه مباركًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، بعكس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 15، 16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 19.

ما وصف به البيتَ الحَرام في مكّة بكونه أوّلَ بيت وضعَهُ اللّهُ تعالى في الأرض، وبكونه مباركًا، ووجود مقامِ إبراهيم الذي يُزار ويُصلّى تجاهَهُ مع وفور الأمن فيه، واكتفى هنا بذِكر وصف البركة؛ "ووجهُ الاقتِصارِ على وصفِ المسجِدِ الأقصى في هذِهِ الآيةِ بِذِكرِ هذا التّبريكِ أنّ شُهرة المسجِدِ الحرامِ بالبركةِ، وبِكونِهِ مقامَ إبراهيم معلومةٌ لِلعربِ، وأمّا المسجِدُ الأقصى فقد تناسى النّاسُ ذلك كُلّهُ، فالعربُ لا عِلمَ لهُم بِهِ، والنّصارى عَفَّوا أثرَهُ مِن كراهيتِهِم لِليهودِ، واليهودُ قدِ ابتعدوا عنهُ وأيِسوا مِن عودتِهِ إليهِم، فاحتيج إلى الإعلامِ بِبركتِهِ"[1].

دلالة ضمير التّعظيم في ﴿بَرَكْنَا﴾:

عظمة الفعل من عظمة الفاعل

ورد التّعبير في قوله ﴿بَرَكْنَا﴾ بإسناد فعل البركة إلى ضمير العظمة (نا) الفاعلين، وقد سبق ما يدلُّ على هذا التّعظيم في بيان قُدرته تعالى على خَرق العاداتِ حيث أسرى سبحانه بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء قليل من الليل، وهذا أمرٌ خارقٌ للعادة قياسًا لقدرات البشر، وهو هيّن يسيرٌ عند اللّه القدير، والمتحدِّثُ العظيم في هذا السياق هو اللّه ربُّ العالمين، والضمير (نا) يعود على الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ﴾ والتّفخيمُ يُشيرُ إلى عظمة الفعل المُكتسبة من عظمة الفاعل، كأنّه يقول: (الذي باركنا بعظمتنا وجلالنا وعلمنا وحكمتنا وقدرتنا حوله).

دلالة صيغة المفاعلة:

الأقصى موطنُ النّبوّة والرّسالات، ومنزلُ العباداتِ والخيرات

ورد الفعل ﴿بَرَكْنَا﴾ بصيغة (فاعل)؛ لكثرة البركات حولَ المسجد الأقصى ومبالغةً فيما يُحيط به مِن هذه البركات، ومن هذه البركات: بركات الدّين والدُّنيا، أمّا بركات الدّين: فلِكَونه مهبطَ الأنبياء والملائكة وموطنَ العبادات، وأمّا بركاتُ الدُّنيا: فلإحاطته بخيرات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 20.

الدُّنيا مِنَ المياه والثِّمار والأشجار[1]، والأرزاقِ التي هي سببٌ في توفير معايش النّاس، وما يحتاجونه مِنَ الأقوات وسَدِّ الحاجات، وهو ما يشهد له الواقعُ والتّاريخ، وما تنافسَ فيه المتنافسون إلّا لهذه البركات.

بلاغة الكناية والمَجاز المُرسل:

البركةُ محيطة بـه إحـاطـة السِّوار بالمعصم

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بذِكر الظرف (حول) في قوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، دون أن يُقال: (الذي باركنا فيه)، و"حولُ الشّيء: جانبُه الذي يمكنه أن يُحوَّل إليه"[2]، وحول الشّيء وحَواليه: ما يحيط به من جوانبه، "أي: لأجله، فما ظنّكَ به نفسِه؟! فهو أبلغُ مِن (باركنا فيه)"[3]، وإذا كانتِ البركة حواليه، فصارت محيطةً به من جميع جوانبه، فمن باب أولى أن تكون فيه؛ إذ هو الأساس والأصل، "فكونُ البركةِ حولَهُ كِنايةٌ عن حُصولِ البركةِ فيهِ بالأولى؛ لِأنّها إذا حصلت حولَهُ فقد تجاوزت ما فيهِ، ففيهِ لطيفةُ التّلازُم، ولطيفةُ فحوى الخِطاب، ولطيفةُ المُبالغةِ بِالتّكثيرِ"[4]، والتّعبير بـ ﴿حَوۡلَهُۥ﴾ مجازٌ مرسلٌ لعلاقة المجاورة مِن قبيل تسمية الشّيء باسم مجاوره.

دلالة اقتصارِ اللّام التّعليليَّة على إراءة الآيات:

خُصَّ رسولُ الله ﷺ برؤية آياتٍ لم تكن لغيرِه

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ لامُ التّعليل، وهي الّتي يصلُح موضعَها (مِن أجل)، والمراد: أسرينا به ﷺ لأجل تمكينه من رؤية آياتِ اللّه الغائبةِ عنه؛ فإنّ الغرض الأسمى مِنَ الإسراء هو بيانُ فضل النّبيّ محمّد ﷺ الذي بلغ ذروة سنام العبوديّة للّه تعالى، فأكرمه ربُّهُ بإراءته آيات عظيمة من آيات ربّه الكُبرى، وفي ذلك مزيدُ بيان قدرة ربّ العالمين وكمال عظمته وإحاطة علمه، "ولامُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4319.
(2) الرّاغب، المفردات: (حول).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 289.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 20.

التّعليلِ لا تُفيدُ حصرَ الغَرضِ مِن مُتعلّقِها في مدخولِها"[1]، "وإنّما اقتصر في التّعليلِ على إراءةِ الآياتِ؛ لِأنّ تِلك العِلّةَ أعلقُ بتكريمِ المُسْرَى بِهِ والعِنايةِ بِشأنِهِ؛ لِأنّ إراءة الآياتِ تزيدُ يقين الرّائي بِوُجودِها الحاصِلِ مِن قبلِ الرُّؤيةِ"[2].

سِرُّ التّعبير بالرّؤية:

آيـاتٌ أرضيّـةٌ، وفـيـوضـاتٌ سماويّة، حظيَ بها خيرُ البريّة

الرّؤية عند علماء اللّغة تعني: إدراكَ المَرئيّ ومشاهدتَهُ، إمّا بالحاسّة البَصريّة، أو ما يدور في فَلَكها ويجري مجراها، وإمّا أن تكون وَهْمًا أو خيالًا، أو تكونَ عن الفعل والفكر، ولمّا كان الغرضُ مِنَ الإسراء به ﷺ مشاهدةَ قُدْرةِ اللّهِ ودلائلِه المنصوبةِ في الكون؛ تثبيتًا وبرهانًا لنُبوّته ﷺ؛ رأى ذلك مشاهدةً وعيانًا، فأراه اللّهُ ﷻ الملكوتَ الأرضيَّ، والفيوضاتِ السّماويّةَ، بدليل أنّ اللّه تعالى أعدّه ﷺ إعدادًا خاصًّا لهذه الرِّحلة، ولمّا كان الغرض مِنَ الإسراء إراءَتَهُ آياتِه الكبرى وأدلّتَه العظمى على وجوده ﷻ، جعل ذلك أمرًا حسيًّا مشاهدًا لا يَشوبُه شَكٌّ أو ارتيابٌ.

دلالة التّعبير عنِ الرُّؤية بالمضارع ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾:

وصـلٌ دائـمٌ، وقُـربٌ متّصلٌ، ومَدَدٌ لا ينقطع

أفاد الفعلُ المضارع ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ التّجَدُّدَ والاستمرارَ للرُّؤية، معَ استحضار هذه الصّورة الماضية في الأذهان، كأنّها تُرى وتُشاهد على مَرِّ العصور والدُّهور، فلا تنقطع هذه الرُّؤية، وذلك بفضل قراءة هذه الآيات المباركات، والإيمانِ بما كان فيها، فإنَّ الائتساء برسول اللّه ﷺ إيمانًا بأن يَرى المؤمنُ بقلبه ما رأى رسولُ اللّه ﷺ ببصره، لَهوَ مِن أعظم الإيمان الذي يُؤْجَر عليه، وما كان الصِّدّيق صدّيقًا إلّا بإيمانِه بما أخبر به رسولُ اللّه في تلك الرّحلة، فتبقى رِحْلَةُ الإسراء متجدِّدةً في قلوب المؤمنين، مستمرّةً في أفئدة المُحسنين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 21، 20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 21.

بلاغةُ إسنادِ الإراءَةِ إلى ضميرِ الجلالة:

إراءةُ الحَقِّ يقينُ المؤمنين ونبراسُ المُوَحِّدين

لمّا كان الإسراءُ به ﷺ مِن صُنع اللّه تعالى، وكان آيةً دالّةً على أنَّ هذه النَّقلةَ العجيبةَ في بُرهَة مِنَ الزَّمن، لا تكون في طَوق البشر على الإطلاق؛ أراد اللّهُ تعالى أن يُهيِّأَ رسولُه ﷺ لاستقبال فيوضات القُدرة الإلَهيّة في شخصه المُختار ﷺ، ممّا ليس في مقدوره أن يفعله مِن تلقاء نفسه أو من عنديّاته، ولمّا كان المُسْري به هو اللّهُ تعالى ممّا لا يتصوّره العقلُ البشريّ كان ذلك مُمكِنَ الحدوث، وإسنادُ الرّؤيةِ إليه ﷻ؛ ليتجلَّى السّببُ المباشر في إراءَته نبيَّهُ ﷺ الآياتِ والمَشاهد، وأنّه ليس في مقدوره ﷺ أن يفعل هذا مِن تلقاء نفسه، وإراءَةُ اللّهِ له دليلٌ قويٌّ على اختصاصِ اللّهِ تعالى له وتشريفِه بهذا، فإذا كان اللّهُ تعالى هو الذي أراه فأَنْعِم بها مِن رؤيةٍ!

معنى الحرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

الحرفُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾؛ للتّبعيض؛ لأنَّ ما رآه النّبيُّ ﷺ وإن كان عظيمًا، إلّا أنّه مع عَظَمتِه هو بعض آياتِ اللّه تعالى، مقارنةً بما اشتمل عليه هذا الكونُ مِن عجائب[1].

غرضُ التّعبير بصيغة الجمع (الآيات):

عَـظَـمَـة الآيـاتِ تدلُّ على عظمة المشاهدات

ورد لفظُ (الآيات) في القرآن الكريم مجموعًا ومفردًا، ففي حالة الجمع فهو لجمع الدّلائل، وفي حالة الإفراد فَلِوَحدانيّة المدلولِ عليه؛ لِما يخرج عن ذلك[2]، وقد جُمِعَت (الآيات) هنا دلالةً على عظيم شأن الآيات والمشاهدات الّتي رآها رسولُ اللّه ﷺ، مِنَ المُشاهداتِ الأرضيّة والسّماويّة، فجُمِعَت لتُناسبَ تلك المعجزةَ.

دلالةُ إضافةِ الآيات إلى ضمير جَمْع العَظَمة:

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَآۚ﴾ إلى ضمير العظمة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 285.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 14.

آياتُ الله تعالى عـظـيـمـةٌ في شأنها، شريفةٌ في غايتها

تشريفًا وتعظيمًا لها، ودلالةً على أنّ ما رآه رسولُ الله ﷺ مِنَ الآيات مِمّا لا يُقادَر قَدْرُه، ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، وعُدل عن الظّاهر إلى الضّمير اختصارًا وفخامةً لشأن المُعَبّر عنه، كأنَّه لشُهرته يدلُّ على نفسه، ويُكْتَفى عن اسمه الصّريح بذِكْر شيءٍ مِن صفاته.

بلاغة الالتفات في الآية:

الانـتـقـال مِـن مقامِ الاِستِدلالِ عـلـى عـالـمِ الغيبِ إلى مقامِ المصيرِ في عالمِ المُشاهدةِ

التفت الخطابُ مِنَ الغَيبة في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، إلى التّكلُّم في ﴿بَٰرَكۡنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بنون العَظَمة، ثمّ التفت إلى الغَيبة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ والالتِفاتُ هُنا امتاز بلطائف؛ مِنها: أنّهُ لمّا استُحضِرتِ الذّاتُ العَليّةُ بِجُملةِ التّسبيح وجُملةِ الموصوليّةِ، صار مقامُ الغَيبةِ مقامَ مُشاهدة، فناسب أن يُغيِّر الإضمارَ إلى ضمائرِ المُشاهدةِ، وهو مقامُ التّكلُّم، ومِنها: الإيماءُ إلى أنّ النّبيّ ﷺ عند حُلولِهِ بالمَسجِدِ الأقصى، قد انتقل مِن مقامِ الاِستِدلالِ على عالَمِ الغَيبِ إلى مقامِ مصيرِهِ في عالَمِ المُشاهدة، ومِنها: التّوطِئةُ والتّمهيدُ إلى محْمَلِ معادِ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، فيتبادَرُ عودُ ذلك الضّميرِ إلى غيرِ مَن عاد إليه ضمير ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾؛ لأنّ الشّأن تناسُقُ الضّمائرِ، ولأنّ العَود إلى الالتِفاتِ بالقُربِ ليس مِنَ الأحسنِ[1].

بلاغةُ التّوكيد والتّعليل في جملة التّذييل:

إحاطةُ الرّبِّ ﷻ بأحوال عباده

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي: السّميع لأقوال محمّد ﷺ، المُجيبُ لدُعائه، البَصيرُ بأفعال العالَم بكونها خالصةً لا يشوبها رياءٌ، مع اقترانها بالصِّدق والصّفاء، والخُلوّ مِنَ النِّفاق وما يخالف الفِطرة السّويَّة، ويرى ابنُ عطيّةَ أنّ هذا الخِتام وعيدٌ مِنَ الله للكفّار، الذين كذّبوا محمّدًا ﷺ في أمر الإسراء، فهي إشارةٌ لطيفةٌ بليغة إلى ذلك؛ أي: هو السّميعُ لما تقولون، البصيرُ بأفعالكم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 22.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 437 بتصرف.

وموقِعُ (إنّ) التّوكيدُ والتّعليلُ، كما يُؤذِنُ بِهِ فصلُ الجُملةِ عمّا قبلَها، وهي إمّا تعليلٌ لإسناد فعل ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ إلى فاعِلِهِ، وإمّا تعليل لِتعليقِهِ بِمفعولِهِ، فيُفيدُ أنّ تلك الإراءةَ مِن بابِ الحِكمةِ، وهي إعطاءُ ما ينبغي لمن ينبغي، فهو مِن إيتاءِ الحِكمةِ مَن هو أهلُها.

ووجه آخر مُحتمِل، وهو تعليلُ تعليق فعل الإراءة في ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ بمفعوله، وذلك على اعتِبارِ مرجِعِ الضّميرِ إلى النّبيّ ﷺ؛ حيث يأتي من باب عدم الحاجة إلى تعليلِ إسنادِ فِعلِ اللّهِ تعالى؛ لأنّهُ مُحقّقٌ معلومٌ، وإنّما المُحتاجُ لِلتّعليلِ هو إعطاءُ تِلك الإراءةِ العجيبةِ لِمَن شَكّ المُشركون في حُصولِها له، ومَن يحسبون أنّهُ لا يُطيقُها مِثلُهُ[1].

نوعُ القَصْر ودلالتُه في الفاصلة:

تنزيه النّبيّ ﷺ عن الكذب والافتراء

ورد القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بطريق التّعريف باللّام وبضمير الفَصْل، وهو من قبيل قَصْر الصّفة على الموصوف قَصْرًا إضافيًّا؛ لإثبات صفاتٍ أُخْرَى له ﷻ، غيرِ السّمع والبصر، ونوعُه: قَصْرُ قَلْبٍ؛ إذ فيه قَلْبُ معتَقَدِ كفّار قريشٍ في إنكار مُعْجزة الإسراء، فإذا كان الضَّميرُ عائدًا إلى رسول اللّه ﷺ فالقَصْرُ واضحٌ، وعلى جعله عائدًا إلى اللّه ﷻ فعلى تأويل ذلك: بِأنّهُ المُسمِعُ والمُبصِرُ لِرسولِهِ الّذي كذّبتُموهُ، فيَؤولُ إلى تنزيهِ الرّسولِ عنِ الكذِبِ والتّوهُّم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأقصى والأبعد:

الأقصى يَختصُّ بالبُعد المكانيّ، والأبْعَدُ بالبُعد المكانيّ والزّمانيّ والمَعنويّ

"القافُ والصّادُ والحرفُ المُعتلُّ أصلٌ صحيح يدُلُّ على بُعْدٍ وإبعاد، مِن ذلك القَصا: البُعدُ، وهو بِالمكانِ الأقصى والنّاحيةِ القُصوى"[3]، والأقصى: هو الأبعدُ مكانًا، فأقصيتُ: أَبْعَدتُ، والمكانُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 23، 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 23.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).

الأقصى، والنّاحيَةُ القُصْوى[1]، فاختصَّ الأقصى بالأبعَد في المكان، أمّا الأبعد فهو أعَمّ، فهو خلاف الأقرب، وبَعُدَ يقابل قَبُلَ، والبُعدُ خِلافُ القُربِ[2]، ويستعمل البُعد في الإهلاك والاستبعاد، فيُقال: هذا أمر بعيدٌ، لا يقعُ مِثلُهُ لِعِظمِهِ[3]، وقد تقدّم أنّ تسميتَه بالأقصى اعتبارًا بمكان المُخاطَبين به مِنَ النّبيّ وأصحابه؛ وذلك لأنَّ المُراد تعيينُ البُعد المكانيّ، لا المَعنويّ، فهو قريب مِنَ القلوب والنُّفوس، وتَحِنُّ له أفئدةُ المؤمنين الصّادقين، ولو قال: (الأبعد) لظُنَّ فيه البُعد المَعنويّ كذلك، فكان هذا الاختيارُ دفعًا للأوهام.

(1) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصوى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بعد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»